www.kotobarabia.com

مونودراما

زفرة العربى الأخيرة

إبراهيم الحسينى

www.kotobarabia.com

زفرة العربي

الأخيرة

(مونودراما)

إبراهيم الحسيني

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

[الفضاء المسرحي تُهـيمن عـليه بنـاية قـديمة من الطـراز الإسلامي ؛ حـيث تظـهـر الأعـمـدة الأسطـوانية الكبيـرة ، والشرفـات ، والأرابيسك ، والقباب ، والقناديل ، وفخامة الـنقش على الحـوائط ، كما تظهر مئذنة مهدمة في عمـق الفضاء المسرحي ، و ... و ... إلى غيـر ذلـك ...

وفي منتصف الفضاء يوجد سلم حجري علـى شـكل نصف دائرة يتـدرج صاعـدا لأعـلى ، حـيث تظهـر مجـمـوعة من الحجرات ، وبهو البيت بما فيه من تحف وتماثيل وصنـدوقـا خـشبيـا كبيـرا ملقى بإهمال في الخلفيـة يغـلب عـليه القـدم وتعـلـوه مسحـة أثـريـة واضحة ...]

[تبدأ أصوات البـرق والرعـد في الظهـور تدريجيـا ، يختـلـط ذلـك بأصـوات الريـاح والأمطـار ليـشكـل الجـميع ذروة صـوتية تنتهي بصوت صهيل أحد الخيول ليعـود الصـمت غـامرا المكان ... وعـلى صـوت نـاي يرسـل أنغامـا

تُـثـيـر الشجـن تظهـر عـائشة ؛ وهي امـرأة في العـقـد الخـامس من العـمر ، ملامحها جـادة تتميـز بالقسوة أحيانا وبالخـوف في أحيان أخـرى كثيرة ، نراها تخـرج من إحدى الحجرات العـلـوية وهي تحـمل في يدها فـانـوسـا مضـاءا وتهـبط إلى أسفـل السلم ، ثم تستمر في سيـرها حـتى تصـل للجـمهـور في الصالة لتتأمـل وجـوههم واحـدا تلو الآخر في اهتمام شديد ، إنهـا تبحـث عـن شخـص ما ، لكـن يبـدو أنهـا لا تجـده وسـط الحـضور ، ثم تعـود إلى خشبة المسـرح ، تضع فانوسها مضاءا في منتصف الخـشبـة ، ثـم تـنـظـر في قـوة وتحـد إلى الجـمهـور ...]

عائشة :

لا تبكـوا كـالنسـاء عـلى ملـك لـم تـدافـعـوا عنه كالرجال **[تـدور حول نفسها وهي تُـطلـق ضحـكـة عـاليـة وتـوجه كـلمـاتها للجـمهـور ...]** عـيـونكـم مليئة بالـدمـوع ،

فقط تحتاج لإثارة بعض الشجـن لتنهـمـر ... ولكن منذ متى وهذه الدموع متجمدة في عيونكم ...؟ ومـا سببها ...؟ ... منذ هـذا الصـباح ، منـذ الأسـبوع الماضي ، العام الماضي ، ... العمر الماضـي ... أم منـذ متـى علـى وجـه التحـديـد ...؟ هــل يستـطـيـع أحـدكم أن يقـول لي ...؟ **[تقتـرب من حـافـة مقـدمة خشبة المـسـرح وهـي تنـظـر إلى الناس مستحـثـة إيـاهـم عـلى الكلام ...]** قـولـوا ... قـولـوا .... لماذا نمتلـئ جـميعـا بالبكـاء ولا نستطيـع أن نبكي ...؟ قولوا ... **[لحـظـة صمت]** منذ عـرفت الـدنيـا وأنا أبحث عن رجــل ... رجــل أجــد عـنـده الجـواب ... أجـد عـنـده الأمان ، القوة ، العدل ، القناعة ... **[ثم صارخـة]** هل فيكم هذا الرجل ...؟ ... يبدو أنني أخـطأت طـريقي إليكــم ، فــليس بينكـم من أبحـث عنه وعـلي البحث في مكــان آخـر ... اقبلـوا أسـفي لأننـي أزعـجتكــم ...

واصلـوا هـدوءكـم وصـمـتـكـم ، ويمـكنكم أيضا أن تنـامـوا مـلء جـفـونكـم ، فلـن أُزعـجـكـم بعد الآن ... [**تتجـه إلى الصنـدوق وتجره وراءها وهـي تسيـر ناحـيـة بـاب الخـروج ، وبمجـرد أن تفتح البـاب تُـقـابـل بعـاصفـة شـديـدة تهـب فـي وجههـا ، ممـا يـصيبهـا بكحـات مفـاجـئـة ويجـعـلهـا تعـاود غـلـق الـبـاب بسرعـة ...**] مطـر ... رياح ... بـرق ... رعـد ... يبـدو أن العـواصف والأمـطـار ستـسـتمـر طـوال هذه الليلة أيضا ... والقمر سيواصل احتجابه .... [**تسأل الجـمهور**] منـذ متـى لـم تـروا القـمـر مـكـتمـلا في بهـائـه وسـاطعـا بنـوره فـي السمـاء ...؟ أنا لـم أره منـذ سـنين ... وربمـا قـرون ، ولا أمل في ظهـوره فـي السنـوات القـادمة إلا بمـعجـزة ، ونحـن في زمـن تنـدر فيه المعجـزات ... آه ... يبدو أن الليـل سيطـول

بهذه الـبلاد ... **[للجـمهـ ـور]** سامحـ ـوني ، سـأضطـ ـر للبقـاء معكـم قلـيلا حتـى تتحـ ـسن أحـوال الجـو ... أرجو أن تتحـملوني وأنا بدوري سأُسليكم ، سأحكي لكم بعض الحـواديت الشـيقة ... **[تواصل كلماتها وهي تفتح صندوقها وتُخـرج منـه بعض الأشياء]** حـواديت كثيرة من الماضي ، عـن الحـاضر ، وأيضا عن المستقبل ... **[تتوقف لحظـة تنظر فيها بابتسامة إلى الجـمهـور ...]** أعـرف ما يـدور داخل رءوسـكم ، تقولـون عنـي امـرأة مجنـونة ، مخبـولة ، لا تعـرف مـ ـا تقـ ـول ، فكيف لامـرأة أن تدعي أنهـا عـاشت مئات السنين تبحث عن رجـل عـادل وقـوي ويـمـ ـلك حـلا لإزالة أسباب البكاء ، امرأة تعرف حواديت الماضـي والـحـاضر والمستقـبـل ، ولا تـقنع بما يـوفره لها هـذا الـزمان مـن الأمان **[تتـوقـف بعـد أن تعـثـر عـلى كتابا داخـل الصنـدوق فـتـ ـرفعه بيديها]** هل أحكي لكم حدوتة من هذا الكتـاب ...؟

إنه ألف ليلـة وليلـة ... **[فـتـرة صـمت ، ثـم تتـنـاول كتابـا آخــر]** إذن مـا رأيكـم فـي كـليـلـة ودمنـة **[ثــم آخــر بـعــد أن تُـلقيه]** أو الشـاهـنـامـه **[تُـلقـيه ثم آخـر]** أو المهابهاراتا أو كتـاب سيـر الأبطـال أبـو زيد الهلالي ، عـنتـرة بـن شـداد ، ذات الهـمة ... قـولـوا ماذا تريدون ...؟ الصمت ... الصمت هـو كل ما يمكـن لي أن آخـذه منكم ... أنكم بلا إرادة ، تتقبلون بلا مناقشة مـا يـفرض عـليكم بـدءا بالحـاكـم وانتهاءا بلقـمـة الـعـيـش ، كل منكم يفـكر داخـل دائـرة اهتماماتـه الشخـصيـة ، والـدوائر مع الزمن تضيـق عـلى أصحـابهـا ، وبالـرغـم من ذلك لا يفكـر أحـدا في الخـروج منها ... **[فتـرة صمــت صغـيــرة تظـهــر عـائشـة فـيها وكأنها تراجع نفسها ...]** ما هذا ...؟ لماذا أتعامل معكم بهذا القسوة ...؟ أعـذروني ، فـأنا امرأة ضاع منها كل شيء الـزوج ... الـولـد

... الأب ... الأم ... الـوطـن ... باختصار الأمان .... وهـاأنـا ذا أدور هـائمة عـلى وجـهـي في كـل بلاد العالم بحثـا عـما فـقـدته ... أُلـقـي اللـوم على نفـسي أحـيـانـا وأُلـقـيه عـلى الآخـرين أحـيـانـا أخـرى ...

اسمـحـوا لي إذن أن أُقـدم نفـسي إليكـم ... اسمي عـائشة ، سمـاني أبـي عـلى اسـم عـائـشـة الـحـرة زوجـة عـلي بـن أبـي الحـسـن ملك غـرنـاطـة آخر مملكة سقطت من ممالك دولة المسلمين في الأندلس وأم أبي عبد الله بن علي آخر ملوك غـرنـاطـة **[تشرد بخيالها قليلا]** ومنذ قال لي أبي ذلك وأنا أشعر كأنني أسيـر فـي نـفـق طـويـل مـظـلـم ، بيـدي شمعـة قـاربت علـى الانتهـاء وسيفـا خـشبـيـا مكـسـورا ، وبقـايـا درع ، ودعـاءا أنسـاني الخوف نصفه ، وأرتـدي فُـستـانـا نُـقـشـت عـليـه خـرائـط دولـة العـرب من تركيـا

شـ ـرقـا إلى الأنـدلـس غـربـا [**أثناء الكـلام**
تجـاهـد عـائشة نفسها لتُحـقـق الصـورة التي
تتـحـدث عـنها ...] النفـق طـ ـويل بـارد ،
والخـطـوات ثـقـيـلـة ، والشـمـس في آخـر
النفـق تـلـوح لي بضيائها ، لـكـ ـنني كـلـ ـما
اقـتـربت منها وجـدتهـا سـرابـا ووهـمـ ـا ،
فـأواصـل السـيـر منـدفـعـة بكل قـوتي فـي
اتجاه الخلاص ، الأمـان ، الحـ ـرية ... السهـ ـام
الكثيـ ـرة التـي تتطـايـ ـر حـ ـول رأسـي لا
تـقـتـلني بـل تُـزيـ ـد مـن إرادتـي عـ ـلى
مـواصلة الطـريـ ـق ... تنـزلـ ـق قـ ـدمي ،
أقـاوم سقـوطـا مـريعـا ... وفـجـأة تهـ ـب
ريـاحـا عـاتـيـة آتيـة مـن الـغـرب تـكـاد
تقـتـلعـني مـن جـذوري [**وهـي تـلهـ ـث**]
تـثـبـتي يا عـائشـة ، قـاومي ، لا تسقـ ـطي ،
هنـ ـاك آمـ ـال كـثيـ ـرة معـقـ ـودة عليـكِ ،
بسقـوطـك تسـقـط أشياءا كثيرة ، ستُحـاكـمـكِ

الأجـيـال الـقـادمة ، أشـرف لكي أن تمـ ـوتي وأنتي تقـاومي فـالـتخـاذل عار لن يسـامحـ ـكِ عـليه التـاريخ [**أصـوات ريـاح مـزمجـ ـرة ، عـائشـة تـقـ ـاوم بكـ ـل قـ ـوة السقـ ـوط ، الشـمعـ ـة تهـتـ ـز فـي يـدهـ ـا**] لا ... لا تنطـفـ ـئي [**تنـطـ ـفئ الشـمعـ ـ ـ ـ ـ ـ ـة**] الظـلام ... [**تعـود لحكيها**] ويسـود من حـولي ظـلام مطبـق ويقـفـز من ذهـني سـ ـؤالا ... هـل أسيـر في الاتجـاه الصحـيـ ـح ...؟ هنـ ـا أقـ ـ ف متجـمـ ـ ـدة كعـامـ ـ ـود أسمـ ـنتي ، تتـقـافـز الخـفـافيش من حـولي بعـضهـ ـ ـا ينهـش لحـمي ، أحـاول أن أُلـمـلـ ـم نفـ ـسي فـ ـإذا بي أكـشـ ـفهـ ـا أكـثـ ـر ... أصيـ ـر عـريـانـة ... عـريـانـة بمـفـردي وسـ ـط كل هذه الخـفـافيش [**بـأداء انفعـالي متصـاعد**] مدوا أياديكم ... إنني أُمتهن ... أتعـرى ... أمـوت ... لا تظـنـوا أني سـأمـ ـوت بمـفـ ـردي ...

سيبدءون بي وسينتهـون بكـم .... مـا أنـا إلا أول الخـيـط وأنتـم بقـيتـه ... فكـروا فـي ، فـكـروا في أنـفـسكـم ، مـدوا أيـاديـكـم ولا تتـفـرجـوا علي وأن أنتهي ... [**تـدور حـول نفسها وهي تمد يـديهـا في جـميع الاتجـاهـات ، وهي تـردد كـلمتهـا الأخيـرة إلى أن تنهـار تمـاما فـتسـقـط عـلى الأرض ... أثنـاء تصـويـرهـا لهـذا المـشـهـد تتـصـاعـد كخـلفـيـة لها أصـوات معـركة حـربيـة : صهـيـل خـيـول ، صليـل سيـوف ، أصـوات ضـرب ، طعـان ، آهـات ، قـتـلى ، طـبـول حـرب ، إلى أن تصل لـذروتها مع نهاية المشـهد ... ثوان ثم تتـسـرب بـؤرة إضـاءة زرقـاء عـلى عـائشـة تظهـر داخـلها وكـأنها تستيـقـظ من حـلـم طـويـل ...**] آه ... لا أعـرف إن كان هذا حـلما أراه فـي اليـقـظـة وأنـا مـفـتـوحـة العـينـيـن ، أم أراه فـي

المنام ... أحيانا أشعـر أن حـيـاتي نـفـسـها ما هي إلا حـلما طـويلا ، وأنه سيأتي اليـوم الـذي أستـيـقـظ فـيـه لأجـد نفسـي شخـصيـة أخـرى غير عـائـشة هذه ، وأنـه لا تربطنـي أي صلة بعـائشة الحـرة الأنـدلسيـة ... ربمـا أستيـقـظ فـأجـد نفـسي وزيـرة مـثـلا ... آه وزيـرة [**تـتـعـامـل وكأنها وزيرة ... تُـخـرج نظـارة ، جـاكـيـت بـذلـة ، تـرتـديهـمـا ، وكـذا بعـض الأوراق من صنـدوقـهـا ... ثـم تُحادث شخـصا وهـميـا بشكـل رسـمي ...]** سيـدي الـرئـيـس لتسـمـح لـي بتقـديم تقـريـري الشهـري ... تفـضل ... الأحـوال عـلى مـا يرام ، الشعـب ينعـم بالخيـرات الـوفيـرة والجـمـيـع يـقبـلـون أيـاديكم وأرجـلـكم وأحـذيتـكـم ، وكـذا أيـادي وأرجل وأحـذية العـائـلـة الـكـريمـة ، ويستـأذنـون سيـادتكـم في أن يقـومـوا بمـسـح الأحـذيـة

وتـلميـعهـا بعـد تقبيـلهــا ، فاربمـا نقــلات شـفـاهـهـم إليها ما يمكن أن يضرها ... **[ترمـي الأوراق من يـدها]** وربمـا أستيـقــظ فـأجــد نفــسي شحــاذة **[تتـقــمص دور الشحــاذة بارتدائها بعـض الإكـسـسوارات والملابـس مـن صندوقها ...]** لله يـا مـحــسنين ... كـلــمة طـيبـة لله نـظـرة شـفـقـة لله ... ابتسـامــة لله ... ضمـيـر حي لله ... شهــادة حـق لله ... اجتماع على رأي لله ... نصرة مظلوم لله ... تحرير أرض محتلة لله ... اتحاد ضد عدو لله ... حريـة لله ... ديمقـراطية لله ... كرامة لله ... حياة لله .... **[من الممكـن أن تضيف الممثلة مـن عندهــا أو بمساعـدة المخـرج مـا تـراه مناسـبا حــسب تـوقـيـت ومكـان العـرض ، وذلـك بخــاصة عـنـدما تنـزل للجـمهــور مــادة يـدهــا لـتـشحــذ منهــم هــذه الأشـيــاء ، ثـم تُـغـيـر بعـد ذلك الشـخـصـيــة ...]** ومـن

الممكـ ـن أن أستيقـ ـ ـظ فـأجـ ـ ـد نفـ ـ ـسي حـتـشبـسـ ـ ـ ـوت ، كـلـيـوبـاتـ ـ ـ ـرا ، نـفـرتـيـ ـتي ، ولادة بنـ ـت المـستـكـ ـفي ، صـبيحـة مـلكـة قـرطبـة ، أو أجـد نـ ـفسي نجـ ـمة سينـمـائيـ ـة ... [**تتـمخـطـ ـر فـي مشـيتهـا وهي تُـقـلـد نجـ ـمات السـينما ، ثـم تحاول بطريقـة مضحـكـة أن تكـشف جـزءا من كـتـفيهـا كـمـا تفعـل نجـ ـمات الإغـ ـراء ، ويمكن لها أيضـا أن تـقـلـد إحـداهـ ـن أو أن تـؤدي مشهدا لها من أحد الأفلام القـديـمة ، ثـم تتـرك كـل ذلك ...**] أو أجـد نفـسي مـغـنيـة كبيـرة كـأم كـلثـوم ، فـيـروز [**وبطـريقـ ـة سـاخـرة**] أو ... أو نانسـي عجـرم [**تعـ ـود لجـديتهـا ، ثم تـؤدي مقـطـعـا غـنائـيـا لأم كـلثـوم**] ويمكن أن أجـد نفـسـي راقـصـ ـة مشهـورة [**بمجـرد ذكـر كـلـ ـمة راقـصـ ـة مشهـ ـورة تنـطـلـ ـق أصـ ـوات مـ ـوسيقى**

راقـصـة ، لا إراديا تجد عـائشة نفسـها وهـي تحاول الرقـص ، وما أن تبـدأه حتـى تتـوقـف صارخـة ، فـتتـوقـف المـوسيـقى أيضـا] لا ... لست راقـصة ، بالـرغـم مـن أننـي أُجيـد الرقـص أكـثـر من أيـا من المهن الأخـرى التي ذكـرتهـا ... إنني أكـرهـه ... أكرهـه لأنـه يـذكـرني بـرقـصـة النـفـاق الـتي نـرقـصهـا جـميعـا ، فالعامـل يرقـص لـمـديـره حتـى يرضـى عنـه ، ومـديـره يـرقـص لـمـن هو أعـلى ليـرضى هو الآخـر ، ومن هو أعـلى يـرقـص لـمـن هـو أعـلى منه ... وهـكـذا حتى نجـد الـدولـة كـلهـا تـرقـص لـدولة أخرى أعـلى منها **[بمـرارة]** كـلنـا يكـشـف الـبطـون ويهـز الأرداف ، ويتـمـايـل في مجـون وخـلاعـة لـيـرضي من هـو أعـلى ... إننا نرقص منذ مـا يـزيـد عـلى خـمـسـمـائـة عـام **[بشكـل مبـاشـر**

للجـمـهـ ـ ـور] أعـ ـ ـذروني فـ ذاكـ ـ ـ ـرتي ضعـيـفـة لا تسـتـطيع أن تعي أكثر من ذلـك ، ربما تعـي ذاكـرتكـ ـم مـا يـزيـ ـد ... هـ ـل تـعـرفون منـ ذ متى ...؟ منذ تـفـرقـت دولـ ـة الإسـ ـلام فـــي الأنـدلـ ـس إلـــى ثـلاثـ ـ ـة وعـشـريـن ممـلـكـة بثـلاث وعـشـريـ ـن مـلـكا بدلا من مملـكـة واحـ ـدة بـمـلك واحد ، هنا انهـزمت وحـدتنا وانهـزمـنـا ، عنـدمـا رفع الـمـسلـم سيـفـه ضد أخـيه طمعـا فيـ ـه انهـ ـزمنـ ـا ، عنـ ـدما طـ ـمع الجـ ـميع فـي تحـقيـق مكـاسب شخـصـيـ ـة انهـزمنـ ـا ، عـنـدما سـاد الـفـسـاد وتـراخت الأعـصاب وركن النـ ـاس إلـى اللامبـ ـالاة انـهـزمنـ ـا ، عـنـدمـا تـركـنـا حـكـامنـا ولم يعـ ـودوا يهتـمـوا إلا بمـلـذاتهـم انهـزمنـا ، عنـدما لم نعـي دروس الماضـي انهـ ـزمنا **[ثـم بتونـات صـوتيـة متصاعـدة تكرر كـ ـلمة انهـزمنـ ـا]**

بعـد ثمـانيـة قـرون سقـطـت دولـة الإسـلام في الأنـدلـس ، كـان العـرب فيهـا كعبـة العـلـم والـفـن فـي الـعـالـم ، سـقـطت الأنـدلـس وخـرج أهـلهـا يتـسـولـون مكـانا يـقيـمـون فيه ، وثـوبا يستـر عـوراتهـم ، ولـقـمـة تقيم أودهم .... سقـطـت الأنـدلـس ، وسقـطت بغداد على أيدي التتار ، وسقطت فلسـطين ... وسـقطت ... وسـقطت ... أشـياءا كثـيـرة سقـطت ... سـلـسلـة طـويـلـة تتـهـاوى حـلـقـة بعـد أخـرى ، وحـتـمـا سيـأتي عـلـيـنـا الـدور ... **[تعـود المـوسيـقى الـراقـصة إلـى الـظهـور مـرة أخـرى ... تُـشيـر عـائشـة للـجـمهـور بـالصعـود إلى خـشـبـة الـمـسرح ...]** تفـضلـوا ... يستطيع كـل مـنكم أن يصعـد إلـى خـشبـة الـمـسـرح لـيـواصـل رقـصتـه الـعـبـقـريـة ... تـفـضلـوا فـأفـضـل

لـكـم أن تمـارسـوا خـطـيئتـكـم عـلانيـ ـة بـدلا من أن تُـضيـفـوا إلـيهـ ـا خـطـيئـ ـة الـكـذب عـنـدمـا تـمـارسـوهـا سـ ـرا ... تـفـضـلـوا الحـلبـة معـ ـدة للـرقـ ـص ... تـفـضـلـوا ... [**تخـرج مـن صنـدوقـهـ ـا كثـيـرا مـن الأقـنعـ ـة تـرميهـ ـا بـاتجـ ـاه الجـمهـور**] خـذوا ... هـذه أقنعـ ـة كثيـ ـرة ومتنـوعة إن كـنتـم لا تُـريـدون أن تـظهـروا بشـخـصيـاتـكــ ـم الـحـ ـقـيـقـيـــ ـة ... أرجـوكم أريـد رقـ ـصا جيـ ـدا ... رقـصـ ـا جـيـدا ... [تشيـ ـر بيـديهـ ـا فـي انفعـ ـال فـتتـوقـف الـمـوسيـقى ، ثـم يـتـون صوت هـادئ وحـزيـن ...] أرجـوكم ... أرجـوكـم كـفى رقـصـا ، فـالثـوب لـم يعـد يحتـمـ ـل الـمـزيـد من الـتـمـ ـزق ، فـقـ ـد أصبـ ـح خـرقـا بـاليـة ، ولـم يعـ ـد بـإمكـاننـ ـا أن نتـدفـأ بـه فـي هـذا البـ ـرد القـ ـارص ...]

تتعـالى أصـوات الـريـاح مصحـوبـة بالبـرق والـرعـــد ، ثـم تُـديـر عـائشـة ظـهـرهـا للجـمهـور ، وتسيـر بخُـطـى هـادئــة إلـى صنـدوقـهـا ، تُـخـرج كـاسيت صغـيـــر ، تُـديـر أغـنيـة لـفيـروز ، تـرقــد بجــوار الصـنـدوق مسـتـرخـيـة تمـاما للحـظـات ، ثـم تـفيـق عـلى صـوت دقـات متـتـاليـــة عـلى البـاب ، تنهـض مسـرعـة ، تُـغـلــق الـكـاسيت ، تتجـه نـاحـيـة الباب ، تفتحـه ، لا تجـد أحـدا غـيـر الأمطــار والـريـــاح ، تُـعـاود غـلـق الـبـاب ، تتـجـه إلى بــاب آخـر ، ثم تصعـد السلالم ، ثـم بــاب ثـالــث ورابع ... إلى أن تشعـر بخـيـبـة أمـل كبيـرة ...] لا يـوجـد أحد ، أنتـظـر منـذ سنـوات أن يـأتي ، أن يـلـم ثـوبي عــلى جـســدي ويمـلأني بالـدفء ، أن يستـرني ، يحـمــيني ، أن يحـمـلني ويهـرب بي من هـذا الـبـرد إلـى

تـنـور الشـمـس ... [**منفعـلـة**] لمـاذا لا تـأتي ...؟ [**تـدور كـالمجنـونـة داخـل المـكـان وهي تُـخـاطـب شخـصـا وهـميـا تـنـشد قـدومه ...**] المـدفـأة مـعـطـلـة ، والـبيت تهـدم أكثـر من نصفـه ، ومخـزون الـطـعـام قـارب عـلى النـفـاذ ... [**مـتـلعـثمـة**] اسـمـح لي أن أقـول لك أنـه تـعـفـن وبـالـرغـم من ذلك آكـلـه لأنني لـو لـم أفـعـل لمـتّ مـن الـجـوع أو لأصبحـت متـسـولـة ... هـل تـرضـى لـي أن أصبـح متـسـولـة ...؟ والـمـئـذنـة ... الـمـئـذنـة هـل تـذكـرهـا ...؟ لم يعـد هنـاك مـن يهـتـم بـأمـرهـا ... إن طـولـهـا ينقـص في كـل عـام شبـرا ... بقي لهـا بعـض الأشـبـار ... أقـصـد بعـض السنـوات وتنتـهي إن لـم تـلحـقهـا ... هـل تـريـد لهـا أن تنتهـي

تمـامـا كـمـا انتهت أشـيــاء كـثيــرة مـن حـولـنـا ... ؟ لا تهـرب مـن النـظــر فـي عـيني وقـل لي بصـراحـة ... هـل تـريـد لي أنـا شخـصـيـا أن أنتـهـي ...؟ [**بـانفعــال أكـثـر**] أجـبـني ولا تـقــف صـامتـــا هـكـذا ، تهـرب بعـينيـك مني أو تنـظـر لـي نظـرات بـلهـاء بلا معــنى ... اللـصــوص طـوال الـوقت يـدقـون عــلي الأبــواب ... إنهـم يتـربصـون بي ، ينـتـظـرون الـفـرصة الـمـنـاسبــة للانقضــاض عــلي ... هــل ستـتــركني ...؟ [**تمــد يـديها لـتـتحــسس الشخــص الـوهــمي ، تـفيــق مــن تخـيـلاتـهـا ، تعــدل مـن وضـع يـديهــا لـتـصبـح ممدودة بـاتـجــاه الجـمهــور ، تُخـاطـبــه**] هــل ستتـركــونني ...؟ ... أجـيبـوا ... آه ... نفـس النظــرات البـلهــاء أراهــا دومــا فــي عيـونكــم ، ونـفــس

الـكـلـمـات الـغـبيـة الـتي تـرددوهـا كـالببـغـاوات عنـدمـا أطـالب منـكـم الـمـسـاعـدة ... **[ثـم بتـونـات صـوت مختـلفـة تـردد ...]** نحـن نُـؤازر ... نحـن نـدعـو الله ... نحـن نشـجـُب ... نُـديـن ... نتمنى ... نُحـذر ... نبـعث بـرسـالـة ... نـدعـو لـلـسـلام ... لـلـمـفـاوضـات ... لـلـحـوار ... نبـعـث ببـرقيـة مـواسـاة ... ببـرقيـة تهـنئـة ... بـ... بـ... بـ... كـلهـا كـلـمـات رسـمـيـة عـقـيـمـة لا تُـسمـن ولا تُـغـني من جـوع ... دوائر منـفـصلة ... جـزر منعـزلـة ... **[تضحـك بهستيـريـة]** الـتـاريخ يعيـد نـفـسـه ولا يسـأم مـن الـتـكـرار ... **[تُـخـرج كتـابـا ضخـما مـن صنـدوقـهـا ، تفـتحـه ، تقـرأ ...]** وبعـد تـفـكـك دولـة الأنـدلـس إلـى ثـلاثة وعـشـريـن ممـلـكة بسـبب أطـمـاع

مـلـوكـهـا الأواخـر ـ ـ ـ والـذين تسـمـ ـوا
بمـلـ ـوك الطـوائـ ـف ـ ـ ـ فـي الحـكـ ـم
وتنـاحـرهـم عـليـه ، كـان من السـهـل على
الـعـدو أن يسقـطـهـا ممـلـ ـكة بعـد أخـرى
مستغـ ـلا الـفـ ـتن والمـ ـؤامرات وتعـ ـزيز
النـزاعـات العـرقيـة بين الـمـسـلمين مـن
الـعـرب والبـرابـرة والأسبـان حـتى كـانـت
اللـحـظـة الأخـيـ ـرة وجـ ـاء فـرديـنـانـ ـد
عـلى رأس جـيـوش الـتحـالـ ـف الأوروبـي
الـتي بعـث في طلـبهـ ـا مـن كـ ـل البـ ـلاد
ليحـ ـارب ممـلـكـ ـة غـرنـاطـ ـة آخـ ـر
معـاقـل الـمـسـلـميـن في الأنـدلـس والـتي
سلـم ملـكها الخـائن أبـو عبـد الله علي بن أبـي
الحـسن مفـاتيحـهـا في الثـامن مـن ينـايـ ـر
سنـة ١٤٩٢ مـيلاديـة ، وطـ ـُرد العـرب بـلا
رجـ ـعة مـ ـن الأنـدلـ ـس ... [**تُـغـلـ ـق**
الـكـتـ ـاب ، تُـخـ ـرج مجـمـوعـ ـة مـن

الشـمـوع ، تُـوقـدهـا ، تـرصهـا في شكـل دائري ...] لنحتفـل معـا بعـيـد ميـلاد السـقـوط الـكبيـر ، بعيـد ميـلاد أول خنجـر في الصـدر العـربي ... [**تـنبعـث مـوسيـقـى جـنـائـزيـة مستـوحـاة من لحـن أُغـنية عيد الميلاد ، تُغـني عـائشـة بصـوت يمـلأه الحـزن والـشجـن ، ثم تُـوالي إشـعـال المزيـد مـن الشمـوع ...]** وهذه شمعـة أخـرى من أجـل الانقسامات والتـفـرق ، وأخـرى مـن أجـل سقـوط الـبـوسـنـة والهـرسك ، وأخـرى مـن أجل سقـوط أفـغـانسـتـان ، وأخـرى من أجـل سقـوط فـلسطيـن .... ومـزيـدا من الشـمـوع مـن أجـل سقـوط بغـداد ... والمـزيـد والمزيـد من أجل هـوان الـدم العـربي ... [**منفعـلـة]** وكـل ... كـل الشمـوع من أجـل سقـوط ... سقـوط ... سقـوط ... [**ينخـفـض صـوتهـا تـدريجـيـا بينمـا يـزداد في المقابـل**

انفعـالهـا في تعـاملهـا مـع الشمـوع حتـى يغـطي عـلى كـل هـذا صـوت غـنـاء أحـد المـوشحـات الأنـدلسيـة ، ومن خلال الغـنـاء ، ومن آن لآخـر نستـمع إلـى صـوت بكـاء عـائـشة يظهر مكتوما حتى ينتهـي الغنـاء ، ثـم تُـخـرج عـائـشة من صنـدوقهـا ثلاث صـور بحـجـم متـوسـط ، تـرصها أمامهـا ، وهـي لأبيها وزوجها وابنها ... تُخـاطـب الصـور ...]

أبي ... لماذا سميتني عائشة ...؟ هل لأتـذكر دائمـا حكاويك عن عائشة الأندلسية ...؟ أم لأتذكر دوما أنني أحمل فوق أكتافي جزءا من وزر سقوط الأندلس ...؟ لماذا لم تسميني على اسم ملكة منتصرة ...؟ هل كنت تتنبأ أننا مقبلون على عـصـر مـن الهـزائـم بعـدما ولى عـصر الانتصارات ...؟ **[بانفعـال]** أم ماذا على وجه التحديد ...؟ **[تنتقل إلـى الصـورة الأخرى ...]** وأنت يا زوجي العزيز ، هل مازلـت تتذكر أن لك زوجة ...؟ هل تنوي حقا الرجوع فـي

أحد الأيام ...؟ هل مازلت أصلا على قيد الحيـاة ، أم أنك فارقتها منذ سنين ...؟ إن كنت فقدت الـ ذاكرة من كثـرة المصائب والهـزائم والانكـ ـسارات وتهـت وسـط الـزحـام نـاسـيـا كـل العنـاويـ ـن ، فحاول أن تستخدم أنفك وتتشـمم رائحتـي ، رائحـة الـوطن ، وعد إلي ... أنت لا تعـ ـرف كـم أنـا بحـاجـة إلـيـك ... **[تنتـقـل إلـى الصـ ـورة الثـالثـة]** وأنت أيـهـا الابن العـزيـز ، هـل أنت مغـرم إلى هـ ـذا الحـ ـد بالأغـ ـاني ...؟ **[كـخـلفيـة لكـلماتها تظـهـر أغـنية فيـ ـروز " أنا وشادي " ...]** فـمنـ ـذ سمـعـت أغـنيـ ـة شـ ـادي وأنت دائـم الهـ ـروب ، أو ربـمـ ـ ـا مجـبـ ـر عـلـيـه ... لا فـرق ... هل تعتـقـد أن الهـروب والضيـاع سيحـل لك المـشـكـلـة ...؟ هـل تعـتـقـد أنـه بـإمكـ ـان الهـ ـروب وأحلام اليـقـظـة تحـويـل الـدنيا إلى قـصيـدة شـعـ ـر تـزخـ ـر بالـوجـ ـوه الحـسـنـ ـة

المهـنـدمـة والـ ـورود والـعـصافـيـ ـر ...؟ عـد إلي ولا تتـمـادى في هـروبـ ـك ، لـقـ ـد تمـزق جـسـدي من الضـربـات ... عـد ومـد يـديـك لـتـقـتـلـع الأشـواك الـتي سـ ـدت مسـام العـمـر ... انـفـخ في صدري بعـ ـضا من وهـج الحـيـاة قـبـل أن أرقـد في سلام ....

[تـرتـكـن إلى صنـدوقـهـا فـي اسـترخاء ، تتعـالى أصـوات الأغـنية ، تتـساقـط فـوقهـ ـا بـعـض الـورود مـن أعـلى ، تـضـ ـاء فـي الخـلـفـيـ ـ ـ ـة شـاشـ ـ ـ ـة فـيـديـ ـ ـ ـو بـروجـيـكـتـور تعرض صورا متتالية لأشـكال العـنـف والـقهـر التي تُمارس ضـد العـرب في كل البلاد قـديما وحـديـثـا ، ومع آخـر صـورة تُعـاود الـدقـات الـخـارجـيـة عـلى الأبـواب ظـهـورهـــ ـا ، بـابـتسـامــ ـة سخـريـ ـة تنـظـر عـائشة في تثـاقُـل حـزين بـاتـجـاه البـاب ، ثم تهـم بفتحـه لكـنهـا تتـراجـع ...

] كـذب ... حتى الأبـواب تكـذب ... آه ... من كـثـرة الانتـظـار صـدقـت هـلاوسي وأحـلام يـقـظـتي ... صـدقـت أن هنـاك من سيـأتي من الـخـارج لـيخـلـصـني مـن عـذابـاتي ويحـملني على كـفيه ويجـري بـي كـالمـهـر الجـامـح فـتتـطـايـر خـصـلات شعـري من ورائـي فـاردة ظـلهـا عـلى الأرض وعـطـرهـا عـلى العـالمين ، ثم نصل إلى أمان نور الشمس ... **[يغـمر الفـضاء الـمـسـرحـي من حـولـهـا فـيـضان نـور شـمـسي ....**] سأتـطهـر ، وأتـوضـأ ، وأصـلي ... **[تـظـهـر أصـوات زقـزقـات عـصافـيـر تنـتـهي بـصـوت بلبـلا يصـدح ...**] المـلاك ... الك يا صاحـب المـلاك ... آه ... لـو أستـطـيـع أن أُصـلِـح مـا تـمـزق مـن الـثـوب ... أن أصـلـح مـا تـمـزق مـن حـيـاتي ... **[تخـلـع عـائشة ردائها الخـارجي**

فيظهر من تحته ثوبها ممزقا ، متهرئا ، وملطخا بالدماء في مواضع كثيرة منه ... ثم تتوجه بحديثها للجمهور ...] اسمحوا لي أن أطلب منكم العذر إن كنت قد أخفيت عنكم حقيقتي ، لكنني متأكدة أنكم كنتم تعلمونها بالرغم من المكابرة التي تعلو وجوهكم ، كما أعلم أنا أيضا أن خلف هذه الملابس التي ترتدونها جسد ممزق محفور عليه سلسلة طويلة من الهزائم ، ومن ينكر منكم يجب أن تكون لديه الشجاعة في إثبات صحة ما ينكره بأن يأتي إلى هنا ويخلع ملابسه أمامي ... أعذروني أيضا لأنني وعدتكم بالانصراف ... **[بمرارة]** فأنا لا أستطيع الانصراف ، فرياح الغرب التي

تهــ ـب عــ ـلى منــ ـزلي تـ ـقـ ـتـ ـلــ ـع فــي طـ ـريـ ـقـ ـهـ ـا الأخـ ـضـ ـر واليـ ـابـ ـس ، وأنـ ـا جـ ـسـ ـدي ضـ ـعـ ـيـ ـف لا يـ ـقـ ـوى بـ ـمـ ـفـ ـرده عـ ـليهـ ـا ... فـ ـقـ ـط يمـ ـكـ ـنني مـ ـقـ ـاومتها لو أنكم جـ ـئـ ـتم معي ... فهـ ـل يـ ـوجـ ـد بيـ ـنـ ـكـ ـم مـ ـن لـ ـديه استعداد لذلك ...؟ إنني أبحث ... أبحـ ـث عـ ـن هذا الرجـ ـل الـ ـذي يستطـ ـيـ ـع أن يمنحـ ـني الـ ـدفء والأمـ ـان ... **[تعــ ـود لتـ ـحـ ـمـ ـل مصـ ـبـ ـاحـ ـهـ ـا ... تـ ـخـ ـفُـ ـت الإضـ ـاءة تـ ـدريجـ ـيـ ـا ، تهبـ ـط إلى صالة المتـ ـفـ ـرجـ ـيـ ـن ، تعـ ـاود بحـ ـثهـ ـا وتـ ـأملهـ ـا في وجـ ـوههـ ـم ...]** هل أجد هذا الـ ـرجـ ـل بينـ ـكـ ـم ...؟ أم أنـ ـكـ ـم مـ ـثـ ـلي تنتـ ـظـ ـروه ...؟ ابحثـ ـوا معي خـ ـلـ ـف مـ ـلابسكـ ـم وجـ ـروحـ ـكـ ـم وهـ ـزائـ ـمـ ـكـ ـم عـ ـنـ ـه ، وأنـ ـا متـ ـأكـ ـدة أنـ ـكـ ـم ستجـ ـدوه ... أرجـ ـوكـ ـم ابحـ ـثـ ـوا ... ابحـ ـثـ ـوا ... ابحـ ـثـ ـوا ... **[تُـ ـعـ ـاود الصعـ ـود لخـ ـشـ ـبـ ـة**

المسرح تسير في هدوء وهي تُكرر كلمة " ابحثوا " حتى تصل إلى صندوقها ، تتوقف أمامه ، تشعل عود ثقاب ، ترميه داخل الصندوق فتشتعل النيران فيه وتتوهج عاليا ، ثم تتصاعد مجموعات متدافعة من الأصوات في وقت واحد : الأغاني ، أصوات الحرب ، لمقاطع متداخلة من جمل عائشة ، لأصوات الدقات على الأبواب ، لأصوات وقع أقدامها التي تظهر مدوية أثناء صعودها بمصباحها السلم الحجري ... و ... أصوات أخرى ... تشكل هذه الأصوات جميعا انفجارا صوتيا يصاحبه تشكيل مرئي بالإضاءة ... وينتهي كل هذا بمجرد خروجها من نفس الباب الذي دخلت منه

فـي المـرة الأولى وصفعـه بقـوة في وجـوه
الـمـشـاهـدين ... ثـم إظـلام فـجـائي ...]

إبراهيم الحسيني

يناير ٢٠٠٥